الشيخ ابو علي

ابن سينا

بقلم صوشير مؤدب زاده

صاحب جهره نما الايرانية

— ٢ —

ان أبا علي كما نرى في سيرته كان من نوابغ عصره الذين لا يشقّ لهم غبار فان عبقريته الفذّة مكنته من أن يتقن في زمان قليل علوماً لم يتمكن غيره من فهمها واتقانها إلاّ بعد عناء شديد وممارسة تحتاج الى زمن ليس بالقليل . نعم ان هذا الرجل اللوذعي العظيم قد حوى ما استعصى على الناس من العلوم والمعارف في ابان شبابه وأحاط بها إحاطة تامة وفهم مسائلها وأوضح ما أشكل منها وكشف غطاء اسرارها وشرح نكاتها الدقيقة ولم يترك باباً من العلم إلاّ طرقهُ ولم يبق مسألة إلاّ نظر فيها وبلغ به الامر انهُ لم يحصل له اي تفاوت في زمن الكهولة عن زمن الشباب الذي هو أوان الطيش والعيش تضطرب فيه الافكار وتزلّ فيه الاقدام فكان له في شبابه ما للشيوخ من الافكار والمسائل في شتى العلوم والمعارف

ومن هنا قال بعضهم ان دماغه كان مخلوقاً للفلسفة ومعجوناً منها بل في وسعنا ان نقول ان دماغ أبي علي كان خلقاً للفلسفة وموجداً لها . فقد كان للرجل ذكاء وفطنة قويان نادران قلما وجدا في شخص فكانا عاملين قويين في استخراجاته ومستنبطاته في الطب ومعالجة الامراض فقد استنبط بفضل هذه المواهب ما ربما عجزت عنهُ اليوم الافكار مع ما في متناولها من الوسائل الكاملة التي جهّزها بها العلم

يقال انهُ اصيب مرة بصداع خُيّل اليه ان مادة من المواد قد توجهت الى دماغه فاذا لم يدفعها بأضمدة ولطوخات خارجية أحدثت قرحة في دماغه فبادر الى مداواة نفسه ونجح فيها استنبط

وفضلاً عن هذا الذكاء النادر والفطنة التي فاق بها أهل عصره كانت جميع قواه في حد الاعتدال والكمال فكان متفرداً في القوى المادية والمعنوية ومتمتعاً بها . ولاجل هذا يمكن

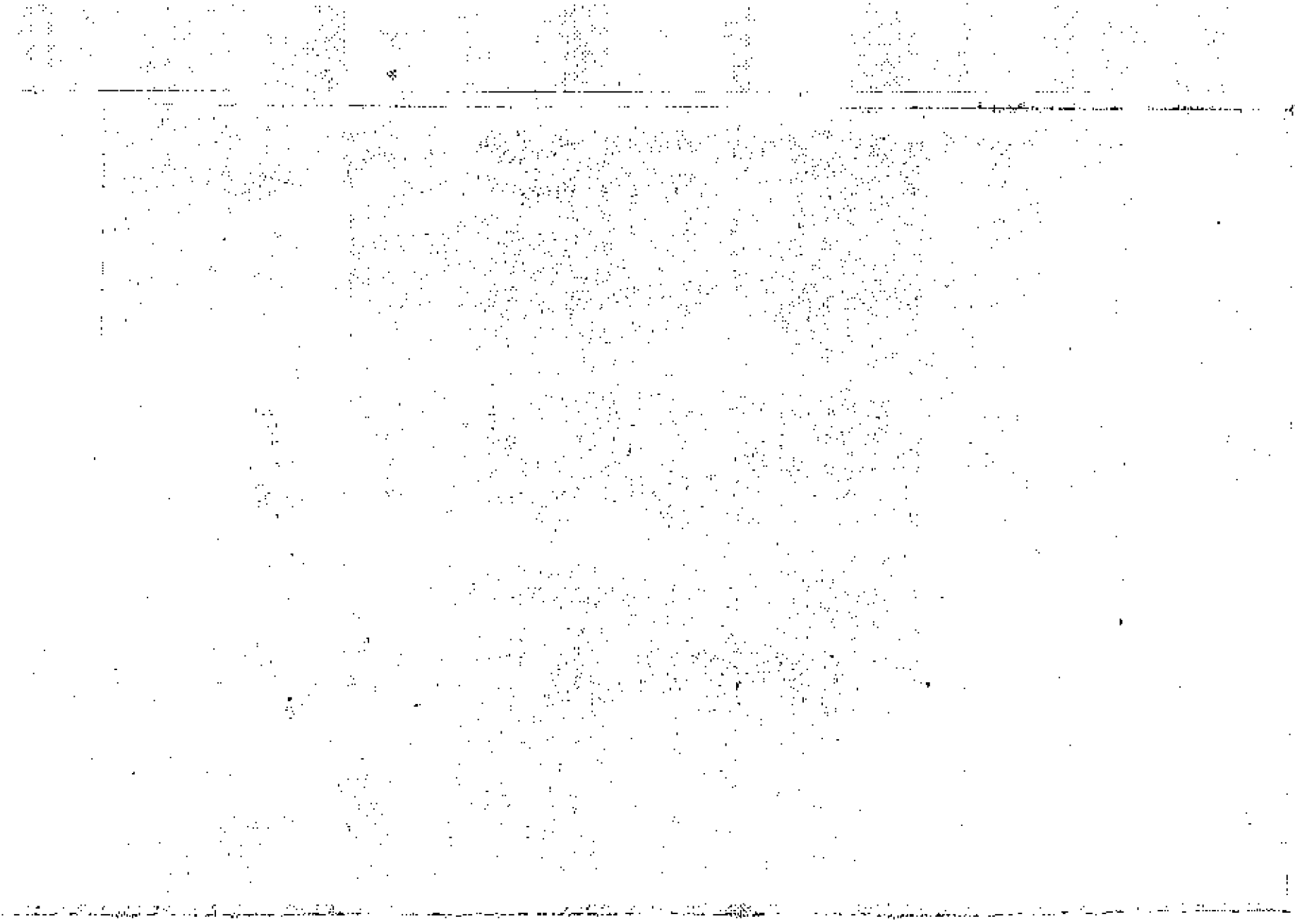

ابن سينا

كما تخيّلهُ ورسمهُ جبران خليل جبران

ان يقال عنهُ انهُ كان انساناً معتدلاً تام القوى ونحن نعلم حق العلم ان لاعتدال القوى المادية اثره الفعال في اعتدال القوى الفكرية . والفلسفة الجديدة تبرهن على هذا وتثبتهُ لنا ولذا كان أبو علي من الوجهة الفكرية من أعدل الفلاسفة المشائين وكانت طريقته أقرب الطرق للبرهان والحقيقة وفضلاً عن هذا فان القوى المذكورة قد أكسبت الرجل قوَّة من الاجتهاد والمثابرة على الاعمال تناسبها تمام المناسبة ولذلك نراهُ قد تمكَّن من إعمال القوَّة المادية والروحية واجتنى منها ثماراً ناضجة وأحرز منها نتائج باهرة لا يستهان بها بل لا يحصر مداها . فقد روى لنا أبو عبيد : قال عند ما وصل منطق كتاب النجاة الى شيراز أورد عليهِ علماء تلك المدينة بعض إشكالات أرسلوها للشيخ على يد أبي القاسم الكرماني فتناول الشيخ الرسالة وراح يشتغل بأمور كانت لديهِ وكان وصولها عند الاصيل فقضى الشيخ تلك الليلة مع أبي عبيد ولكن أبا عبيد يقول لم ينقض الصبح حتى وجه اليَّ فحضرت ووجدتهُ جالساً في مصلاه فناولني الجواب وكان مكتوباً على خمسين صحيفة

ويروي لنا هذا الرجل أيضاً أن ابا علي قد ألف مبحث الالهيات والطبيعيات من كتاب الشفاء سوى مبحث النبات والحيوان في مدَّة لا تزيد على عشرين يوماً ولم يحتج في تأليفه الى مراجعة اي كتاب واليوم لا يمكننا ان ندرس ونفهم ما كتبهُ هذا العبقري في أقل من سنتين . فانظر الى حافظة هذا الرجل واستحضاره للمسائل والمطالب ثمَّ تصوَّر شخصيتهُ الفذَّة . ولعلَّ هذه القوى والحافظة والذكاء النادر وتمكنه من ممارسة العلوم والاحاطة بجميع المسائل وفهم المطالب أكسبتهُ في مجالس الدرس والتقرير تلك الحدَّة التي طالما أشار اليها المؤرخون وصرَّحوا بها في كتبهم ومؤلفاتهم . فقد ذكر الشهرزوري في عدَّة مواضع من كتابهِ تاريخ الحكماء ان أبا علي كان يحتد ويكثر من ذم العلماء ولذلك كثر أعداؤهُ والحاقدون عليهِ وأخذوا يسعون بشتى الطرق في احتقاره واستصغاره . ونرى كل هذا واضحاً مكتوباً في رسالاتهِ ومنها رسالته المسماة بالأضحوية وقد قال في أولها « وقد اتابني حوادث وصُبَّت عليَّ مصائب ولو أصيبت بها الجبال الرواسي لتصدَّعت واندكَّت منها »

ومنها معارضة أبي علي لابي القاسم الكرماني وأبي علي المعروف بمسكويه وهي دليل على هذه الدعوى . يقال ان أبا علي مرَّ يوماً على مجلس درس لمسكويه فرمى اليهِ بجوزة وقال لهُ ما مساحتها ؟ فناولهُ مسكويه رسالةً كان ألفها في علم الاخلاق وقال لهُ يجب عليك أولاً ان تسعى في تهذيب أخلاقك

لا ريب في ان الامر لا يخلو من مبالغة وان أكثر هذه الامور قد نسبها اليهِ أعداؤهُ وخصومه الكثيرون في حياتهِ وبعد مماتهِ

وكيف يمكن ان يصدَّق ان رجلاً بلغ من العلم والحكمة مبلغاً فاق به الاقران والاتراب يكون على جانب عظيم من سوء الخلق والحدَّة التي تنزَّه سمعته ؟

فاذا سلمنا جدلاً بما يقال عنهُ فانا لا يمكننا إلاَّ ان نعترف بأن أبا علي كان من أعظم الفلاسفة بل كان على رأس اولئك الذين تفقههم المدنية الاسلامية الزاهية وأعجبوم ذلك العصر الذهبي الزاهر. فقد درس فلسفة ارسطاطاليس من دون إلمام باللغة الاغريقية او اللاتينية تفهما بفضل قواه النادرة وذكائه العجيب ومع انهُ لم يكن لديه إذ ذاك سوى تراجم ناقصة فقد تمكن من أن يتكلم فيها ويقررها أحسن تقرير ويبينها بياناً ما عليهِ من مزيد حتى نسخت مؤلفاته كتب المتقدمين ورغب فيها الناس ورغبوا عن كتب أرسطاطاليس فاحتلت هذه مكانها

ولم ينكر المتقدمون ولا المتأخرون مقامه هذا وقد أقروا لهُ بالفضل واعترفوا له بانهُ أحذق استاذ قرر تعاليم أرسطاطاليس وقد عرضوا عليهِ كل مسألة أشكلت عليهم واخذوا برأيهِ وجعلوا أقواله وآراءهُ مستنداً لهم في اثبات المسائل الفلسفية والحكمية . ومن جملة فلاسفة الاسلام وعلمائهم الذين يشار اليهم بالبنان ابو حامد الغزالي فقد قال في مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة) ان أقوال المترجمين لكلام أرسطاطاليس لا تخلو من تبديل او تحريف يحتاج الى تفسير او تأويل وقد صار هذا سبباً للنزاع بينهم وبين اكبر فلاسفة الاسلام نقلاً وتحقيقاً اي الفارابي وابن سينا ، ولذلك فنحن نبذنا ما اختاراه وقلنا بصحتهِ لاننا لا نشك فيما لم يختاروه ان يكون سقيماً او عقيماً

ولاجل ذلك يعتقد بعض العلماء ان الغزالي لم يقدم على تأليف كتابه هذا الموسوم بتهافت الفلاسفة إلاَّ وهو يريد هدم آراء ابي علي الفلسفية والتحامل عليهِ والحط من مقامه وكذلك كتاب المصارعة لمؤلفه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فهو يحكي لنا الصراع الدائم القائم بين مؤلفه والشيخ أبي علي بن سينا . وقد جاء في بعض الرسائل الفلسفية أنهم اتفقوا على ان أبا علي قد تفرَّد وفاق الاقران في الحكمة وأصبح في الفلسفة علاَّمة دهره فلم يبلغ شأوه احد ولم يشق له غبار وكل من ادرك كلام أبي علي وفهم معناه فقد فاز بقصب السبق ونال أعلى مقام في الحكمة والفلسفة. وكان عمر الخيّامي من فلاسفة القرن الخامس والسادس من الذين يعتقدون بأبي علي أي اعتقاد وقد سألهُ بعضهم شأن الاعتراضات التي اوردها ابو البركات البغدادي على آراء ابي علي في الفلسفة والحكمة من الصحة والبطلان فأجاب الخيّامي ان أبا البركات لم يفهم كلام ابي علي بعد

وقد بلغ المقام بأبي علي في الفلسفة والحكمة حتى اصبح تعلُّم مؤلفاته وتعليمها من الامور الضرورية المسلَّم بها حتى اصبح المقصود من درس الفلسفة على مرِّ الزمان هو دراسة كتب ابي

علي ليس إلاَّ ولذلك هدأت الحركة الفلسفية وتوقف سيرها الى حدٍّ ما فآل ذلك الى انحطاطها في القرون الاخيرة فقام بعض العلماء وعارض اقوال ابي علي وآراءه وأورد عليه ولم يكن ذلك الاَّ اظهاراً للفضل واسلم وثمر آخرون للدفاع عنهُ وعن تآليفه وكتبه . ومن المعارضين للشيخ والموردين على كتبه شكوكاً كثيرة الامام فخر الدين الرازي الشارح لاشارات ابي علي وقد رد على آراء الشيخ وبيانه حتى سمّى بعضهم هذا الشرح (بالجرح)

ثم جاء نصير الدين الطوسي من جملة حكماء القرن السابع وقرر اقوال الشيخ احسن تقرير وأبطل اعتراضات فخر الدين الرازي وحسبها واهية وانتقد كتبه وجرَّحها باشكال مختلفة . وكذلك محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فقد ذكر في كتابه المصارعة آراء ابي علي وأقواله واعترض على اكثرها اعتراضات واهية حسبها واردة وقد يتجاوز هذا الرجل في بعض الاحيان حده فيعدُّ كلام ابي علي كالهذيان والمجذوبين وقد رد الخواجة نصير الدين على كتابه المسمى بالمصارعة بكتاب سمّاه (مصارع المصارع) وابطل اقوال الشهرستاني وانتقد اخلاقه ولامهُ على تعرضه للشيخ بما لا يليق من الكلام ولعمر الله ان نصير الدين لعلى حق فيما يقول

ولما شاعت وانتشرت فلسفة المشائين ومعتقداتهم على يد ابي علي وكتبه واذعن لها تقريباً قام رجل من اعاظم علماء ايران معارضاً لهذه المعتقدات وجاء بالعقيدة الاشراقية وهي التي تعرف بالحكمة الاشراقية وجعل يقررها ويشيد لها صراحاً على انقاض اصول المشائين التي أوشكت ان تنقرض ويأفل نجمها . وقد راجت الحكمة الاشراقية وكثر تابعوها وكسدت سوق مؤلفات ابي علي ورغب عنها الى حدٍّ ما وذكر تفصيل ذلك في تاريخ الفلسفة للقرن السادس

***

وقد حاز ابو علي فضلاً عن الفلسفة مقاماً شامخاً في الطب ووقف منهُ موقف الاستاذ فقد نسخ كتابه المسمى بالقانون كتب المتقدمين وقضى على تعاليمهم . وكان ابو علي يتحيز لارسطاطاليس ويميل اليه ويتحامل على جالينوس ويحقره في كتبه وبسببه احياناً (فاضل الاطباء) ويقول عنهُ ان فاضل الاطباء جالينوس هو طبيب غير انهُ يجب ان يتفلسف

أما محمد بن زكريا الرازي فكان جالينوسيًّا ولم يكن يعتقد بأرسطاطاليس كثيراً — فطريقة أبي علي التابع لارسطاطاليس في تدوين الطب وتقريره لهُ منطقية بينما طريقة الرازي أقرب للعطابة والسمل

فلما شاع منطق أرسطاطاليس بين الناس ولم يكن الاشتغال بالتشريح والتجارب الكيماوية بالامر الهين كان لتقرير أبي علي وقوَّة بيانه أحسن تأثير في انتشار طريقته وأقوى عامل وضامن للاخذ بها فنسخت طريقة جالينوس التي نشرها محمد بن زكريا وغيره من الذين عرفوا

بالزندقة وعدم التمسك بمذهب فصار كتاب قانون ابي علي يدرس في جميع مجامع العلم والمجالس التي تعقد لدراسة هذا العلم وغدا الكتاب الذي يستند عليه . ولم يقتصر أبو علي في الذب عن التقليد بل كانت له تجارب وآراء وتأملات وكان اكثرها في معالجة الامراض وسببها وقد ذكرها في القانون وقد فقد ما كان منها على صورة مذكرات لم تدوَّن بعد في كتاب — هذا ما يرويه لنا ابو عبيد

وقد ظن بعضهم أن أبا علي — كما يستفاد — من كتبه لم يكن إلاّ تابعاً لارسطاطاليس وقد قلّد المعلم الاول في آرائه قولاً وفعلاً وخصوصاً في المنطق وكتاب التعليم الاول . ولكن الامر على خلاف ما ظنوه فقد كان للشيخ في كل قسم من اقسام العلوم التي اخذها عن ارسطاطاليس آراء اودعها في كتاب مخصوص سمّاه (الحكمة المشرقية) وأما الخطة التي كان قد قرّرها لنفسه في تآليفه وكتبه كالشفاء فهي تقرير آراء المشائين ليس إلاّ ولذلك لم يتعرض لرد آراء شيعة أرسطاطاليس وتضعيفها بل على العكس من ذلك سعى في تأييدها جهد طاقته وقد اتبع نصير الدين الطوسي الذي خلفهُ هذه الخطة في كتبه التي ألفها في تقرير آراء المتكلمين والحكماء من الاشراقيين والمشائين . ومع ان الشيخ ابا علي يقول كل من أقرَّ بشيء وآمن به بلا دليل لديه فهو خارج من الفطرة الانسانية مفسلخ من الطبيعة البشرية نراهُ عند اثباته للنبوة أجاز للفرد الكامل اباحتهُ صيت مخالفيه ودماءهم . ولعل آراءه هذه حملت المؤلفين على ان يعتقدوا فيه التكتم ولكنهُ لم يكن معروفاً بذلك في عصره بل كان معاصروه يرمونهُ بالكفر والالحاد والزندقة . والذي يلوح لنا من سيرة حياته أنهُ لم يكن منكراً للمبادىء الدينية وكان كلما رفعت له مسألة لم يفهمها دخل المسجد الجامع وسأل الله تسهيلها وكشفها له . ولما أيقن بالوفاة تاب الى الله ووهب امواله للفقراء وأما كين ولعل ما اتهمهُ به المعاصرون من الكفر والالحاد جعله يعتقد في كتمان الحقائق الفلسفية وعدم البوح بها وقد اوصى في آخر كتاب الاشارات بكتمانه والضن به على غير اهله وأن لا يظهر عليه إلاّ من كان أهلاً له . وأما من الوجهة التعليمية فقد كان يشابه أرسطاطاليس كل الشبه . ولم يأخذ برأي فلاسفة الهند الذين يعتقدون ان عمران الروح لا يكون إلاّ باضمحلال الجسم وهدم بنائه . وقد اخذ بهذه العقيدة بعض المتصوفين ولكن أبا علي لم يقدم على هدم قواه الجسمانية بل تمتع بقواه الروحية والجسمية كما يقول المحققون والفلاسفة والعرفاء أن الانسان يجب ان يكون جامعاً وذا عينين ويهتم بكل من مراتب الوجود في حدة . فكان كما يقول أهل العرفان : « لا الكثرة تمنع وحدته ولا الوحدة تحجب كثرته »

[لها بقية]